زكى مراد

«الفارق بيننا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى وبين رفاق "ايسكرا"، أننا كنا نناقش أى موضوع سريعا ونصل إلى قرار ثم نبدأ فى العمل، أما رفاق ايسكرا فكانوا يستمتعون بالنقاش، يتكلمون جميعا وطويلا جدا ويستهلكون جلسة أو اثنتين أو أكثر دون أن نصل إلى اتفاق»

زكى مراد

(فى حوار معه أجريته فى ١٩٧٤/١١/٢٥)

تحدثنا عن نوبيين فقراء، كل النوبيين كانوا فقراء، وعمدة الفقراء هو أيضا فقير، سموه زكى العمدة لأن والده كان عمدة أبريم، والعمدة فى القرية النوبية هو محور الحياة، فالرجال يسعون شمالا نحو الرزق ليعملوا فى القاهرة بوابين أو سفرجية ويبقى العمدة لينظم حياة كل سكان القرية من نساء وأطفال وعجائز، هو البديل عن جميع الغائبين، والمنصب المهيب يضفى ظلاله على جميع الأسرة، الأب هو محمد العمدة والأم فاطمة العمدة والابنان فوزى العمدة وزكى العمدة.

هكذا كان الأمر دوماً سواء، والأطفال يلعبون معا فى حوارى «أبريم» أو بين تلاميذ مدرسة عنيبة الابتدائية. والنوبيون مكتوب عليهم أن يبنوا بيوتهم ويزرعوا نخيلهم ثم يتركوا كل شىء كى يغرق، هكذا يدفعون ضريبة الوطن، يدفعونها رغم أن الحكومات المتتالية أنكرت تضحياتهم ولم تترك لهم سوى العمل بوابين وسفرجية، غرقت بيوتهم ونخيلهم والتعويض هزيل. هزيل، يقول زكى بحماس: «تصور تعويض النخلة المثمرة كان ١٥ مليما، وعندما قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ حرام هذا تعويض هزيل رد عليه إسماعيل صدقى: إذا اغتنوا مين حيشتغل عندنا بوابين وخدامين». بمثل هذا الاستخفاف الطبقى المرير أجبر النوبيون على حمل ما تبقى من حطامهم وانتقلوا.. ويشدو زكى مراد حزينا..

«لنفترق

لنفترق يا بيت والدى العزيز

يا قمرة الصبا

يا سكرة الحياة فى ربيعها المبكر الطليق

يا لمحة الطفولة الجميلة البريق

لنفترق

يا نيل، يا نخيل، يا أصيل

قريتى الوردى الجميل

يا قلعى الصغير، يا فلوكتى

يا شمعة تضىء فى جزيرتى».

وفى عام ١٩٣٩ يحصل زكى على الابتدائية ويرحل شمالا، يركب القطار للمرة الأولى فى حياته ويلتحق بمدرسة حلوان الثانوية، ولمدرسة حلوان قصة فى تاريخ اليسار، فهى المدرسة الأميرية الوحيدة بالقاهرة التى تضم قسما داخليا، وفيها احتشد طلاب من مختلف الأقطار: نوبيون من جنوب مصر ومن شمال السودان وسودانيون شماليون وجنوبيون، ويمنيون، وحضارمة، وصوماليون وتونسيون. وبين هؤلاء جميعا أنبت اليسار المصرى زهورا أينعت فى عديد من الأقطار، ووسط هؤلاء جميعا عاش زكى مراد وغنى أشعارا تمتلئ حنينا للنوبة ومحبة للوطن، ويحصل زكى على الثانوية العامة.. وإلى الجامعة، وينتقل إلى غرفة فى أعلى سطح منزل متهالك فى حى الفوالة حيث يتراكم النوبيون، الغرفة ضيقة، لكن الفقر يجبره على مشاركة زميل فيها، وكان زميل صباه ودراسته فى مدرسة عنيبة الابتدائية محمد خليل قاسم، تقاسما الغرفة الضيقة، المضاءة بلمبة جاز شحيحة وتقاسما اللقمة وتطارحا الشعر وجلسا معا فى أحد المقاهى حيث التقطهما عبده دهب وضمهما معا إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وينشط الاثنان فى حماس غامر بين الشباب النوبى فى المقاهى وفى الأندية النوبية والنادى النوبى العام.. الذى تحول على يديهما من مجرد دور للأفراح والتعازى والثرثرة إلى ساحة حية تنبض بندوات ومحاضرات وفصول محو أمية وجلسات صاخبة، وينهض القسم النوبى فى «ح. م» ليصبح أحد أعمدة التنظيم، ويتمدد النشاط إلى الطلبة السودانيين ليشمل أسماء لمعت بعد ذلك فى سماء السودان: عبدالخالق محجوب – عبدالماجد أبو حسبو– محمد أمين – شاكر

مرسال- التيجانى الطيب، وعشرات غيرهم كانوا عماد الحركة السودانية للتحرر الوطنى، «الحزب الشيوعى السودانى».

ويسهم زكى فى تأسيس مجلة «أم درمان» «مجلة الكفاح المشترك»، ويكون له ولزملائه فضل مواجهة الشعار السائد آنذاك «نيل واحد - شعب واحد - ملك واحد»، وتبنى شعار الكفاح المشترك ضد الاستعمار وحق تقرير المصير للشعب السودانى.

وعلى صفحات «أم درمان» يشدو زكى مراد شعرا..

«بينى وبينكم الدم
فتحكموا
ما شئتموا
إنى غدا متحكم».

.. وتغلق «أم درمان».. ضمن حملة الطاغية صدقى يوليو ١٩٤٦.

* * *

«ولأننى عشت محنة الانقسامية فإننى أخوض دوما معركة الوحدة بين كل القوى الوطنية والثورية».
زكى مراد

ونعود إلى فتى نوبى يشتعل حماسا وحيوية يعيش فى قلب النوبيين فى عابدين والفوالة ويقف على عتبات الجامعة.

كانت مصر تغلى وكان يغلى معها شوقا للحرية والتحرر، وكان يغلى مع النوبيين سخطا على هذه الطبقة التى جردتهم من كل شىء، الأرض والنهر والنخيل والأمل، لكنه أبدا لم يفقد بوصلة النضال، ويروى فى حوارى معه: «ذات يوم جاء محمد نور الدين، وكان سياسياً نوبياً سودانياً يعلن تعلقه بمصر وبأعتاب القصر الملكى، وبدأنا حوارا على مقهى بالفوالة، وهمس بالنوبية لماذا لا نعمل معا وسرا من أجل الانفصال عن مصر وعن السودان ونؤسس دولة نوبية؟»، كان زكى ومحمد خليل قاسم ينصتان فى قرف وانتفضا معا ضده، وتوسل لهما ألا يفشيا سره، ووعداه بذلك، زكى يناضل ضد الإقطاعيين والاستغلاليين والقصر الملكى من أجل حقوق الشعب المصرى كله ومن أجل الوطن المصرى

كله، وظل هو ورفاقه النوبيون يتعقبون دعوة الانفصال حتى قضوا عليها تماما.

وفى الجامعة أصبح الفتى ملء السمع والبصر وخاض وبنشاط معركة تأسيس «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» ويتألق ثورية وحماسا وشعرا فى المسيرات الحاشدة فى ٢١ فبراير و٤ مارس (١٩٤٦)، ويعمل زكى بلا كلل فى أكثر من اتجاه وسط النوبيين وفى قسم الطلاب وفى قسم الأحياء وفى أنشطة جماهيرية عديدة، ويتطلب الأمر أن يقترب بمسكنه من الجامعة، فالسير على قدميه من الفوالة إلى الجامعة يستغرق زمنا، ولا قدرة على دفع ثمن المواصلات، وأتى إلى غرفة معلقة هى أيضا فوق سطح متهالك فى المبتديان.

ويتوالى النشاط وتتوالى الضربات الأمنية ويتوالى السجن لكنه يواصل، ويحكى فى حواره وهو يضحك ضحكته المميزة: «كانت الضربات تتلاحق، وذات يوم مررت على محل شحاتة النشار فى شارع السد فقال لى والده إن مخبرين حضروا وسألوا عنه وقالوا إنه مطلوب، وأدركت أن ثمة حملة قادمة فقررت إبلاغ أعضاء لجنة القسم لتنظيف منازلهم من أى أوراق يمكن ضبطها، وصعدت مئات السلالم وأنا أجرى من بيت إلى بيت محذرا الرفاق وعندما انتهيت من تحذير الجميع تذكرت أننى نسيت نفسى، وأن غرفتى بها أوراق كثيرة فأسرعت لأجدهم فى انتظارى وقبضوا على ومعى أكوام من المضبوطات».

ويصبح زكى، وبعد فترة، عضواً فى اللجنة المركزية لمنظمة «حدتو»، وهى فى أوج ازدهارها (١٩٥٠ – ١٩٥٣) وتكون سنوات مجد حقيقى. حركة أنصار السلام التى هى بذاتها جبهة تضم قوى وطنية تمتد من باشاوات.. إبراهيم باشا رشاد وحفنى باشا محمود وكامل باشا البندارى، وفنانين وفنانات ومثقفين وأدباء وشعراء وحزبيين من مختلف الاتجاهات، واللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات عمال مصر.. والاستعدادات تجرى على قدم وساق لعقد «مؤتمر شعوب الشرق الأوسط» الذى دعت إليه «حدتو» لتوحيد نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار والصهيونية، وفيما يتألق الفعل الثورى المتعدد الجوانب وتتصاعد الدعوة إلى تأسيس جبهة وطنية ديمقراطية.. يفعلها الرجعيون وعملاء الاستعمار والقصر الملكى وتحترق القاهرة، ويقبض عليه ليفرج عنه بعد ثورة يوليو، ويكون الزمن الصعب أن تؤيد ثورة الجيش فى مواجهة رفض الحركة الشيوعية العالمية وكثيرين من الشيوعيين المصريين، وأن تعمل ضدها فى آن واحد عندما تنتهك الديمقراصية.. وتفتح المعتقلات والسجون ويهرب زكى مراد ويختبئ فى بدروم بيت بالدقى «بجوار فرن الجهاد»،

وكنا نحن نشتعل حماسا، نحن طلاب «حدتو»، ونغرق جدران القاهرة بشعارات ضد الدكتاتورية العسكرية.. وابتعدنا بالطبع عن موقع سكننا فى العباسية.. فكتبنا على جدران البدروم الذى يعيش فيه هاربا هو وخليل قاسم ومحمد شطا. وهم استشاطوا غضبا وخوفا من جذب أنظار الأمن، لكنه ضج فرحا، فالرفاق ينشطون، وفى هذه الفترة أعمل زكى كل قدراته من أجل تأسيس «الجبهة الوطنية الديمقراطية» وأقام لها قواعد عدة، ويقبض عليه وإلى السجن الحربى، وهناك يكتب رثاء لأبيه الذى رحل وهو فى السجن..

«يا أبى إنى أعيش فى جحيم مستعر
ليس لى غير كفاحى والصباح المنتظر
كنت أرجو أن تعيش لترانى أنتصر
أنا لم أهدك شيئا فى حياتى الماضية
غير أنى كنت أنوى فى حياتى الآتية
أن تكون الباقة المهداة دنيا ثانية
وطنا حرا سعيدا ونفوسا عالية».

ويحاكم أمام محكمة عسكرية والحكم القاسى ثمانى سنوات أشغالاً شاقة.. وتمضى فترة السجن ولا يخرج بل يعتقل ليفرج عنه فى أبريل ١٩٦٤، وتمضى أحداث عديدة قرار الحل – النكسة – ويوم النكسة يتقرر إعادة تأسيس الحزب ويخوض المعركة بكامل قواه وبكل تفاؤله الذى يطغى على كل الصعاب. وتتألق مطبوعات «أحمد عرابى المصرى» «الاسم السرى للحزب الجديد» ويكون لزكى أكثر من تقرير وأكثر من دراسة كلها تتركز على الدعوة لوحدة القوى الوطنية والثورية، وتشتعل «انتفاضة الخبز» ويقبض عليه من جديد، ويواصل.. يواصل بلا ملل، حتى يرحل فى حادث سيارة.